الغزالي وعلم النفس

للأستاذ حمدي الحسيني

الوجـــدان

— ٤ —

تحدثنا في مقالنا السابق عن العلم أو المعرفة أو الادراك في نظر الامام الجليل أبي حامد الغزالي وبينا ما عنده عن علم المعاملة وعلم المكاشفة أي المعرفة الشعورية واللاشعورية فظهر ماسماه بالعلم ظهوراً واضحاً وأضاء ما سماه إيماناً إضاءة جلية وأشرق ما نعته باليقين إشراقا قويا باهراً ساحراً .

ونحن الآن نتحدث عن الوجدان أو ما يسميه الامام الغزالي بالحال . ولكننا نرى من الخير — قبل أن نبدأ بهذا — أن نذكر التعريف النفسي للوجدان لنستطيع المقابلة بينه وبين ماسنراه من قول الغزالي في هذا الموضوع .

(يقول النفسيون إن الوجدان يطلق على ما تجده في نفسك من لذة وألم يصحب الادراك أو النزوع، فاذا ما حال حائل دون سير أية عملية عقلية أو جسمية أو عاقها عن المضي في سبيلها ، كان التأثر مصحوبا بالألم . إما إذا سارت في طريقها حرة لا يعوقها عائق كان التأثر سروراً وارتياحاً .

وهذا الوجدان يصحب كل عملية عقلية كما يصحبها الادراك؛ فالوجدان يشمل اللذة والألم والفرح والحزن والغضب والندم ، وكل انفعال نفساني ، كما يشمل العواطف أيضاً . وأنت الذي تتأثر بهذه العلاقة التي بينك وبين الشيء الذي تشعر به وتنفعل بتلك العلاقة) .

هذا ما يقوله علم النفس في الوجدان الذي يسميه الغزالي الحال. ولنسمع الآن ما يقوله الغزالي عن الحال الذي يعرفه علم النفس بالوجدان .

يقول الغزالي في تحليله لإحدى العمليات العقلية وهي التوبة ما يأتي : ان التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة : علم . وحال . وفعل . فالعلم الأول والحال الثاني . والفعل

تحت صيب من المطر قد صحبه ظلمات ورعد وبرق ، أما الرعد فتناه في الشدة إلى درجة أنه يود اتقاءه بوضع إصابعه إذا استطاع في أذنه ؛ وأما البرق فيكاد يخطف البصر، وأما الظلمات المتراكمة فتحول بين السائر وبين الاهتداء إلى سواء السبيل . ونجد تمدد هذا التشبيه في قوله سبحانه : « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا... أو كصيب من السماء ... » . ومن النظر إلى الفكرة من عدة زوايا أنه حينا ينظر إلى أعمال الكافرين من ناحية أنها لا أثر لها ولا نتيجة فيرد إلى الذهن حينئذ هذا الرماد الدقيق لا يقوى على البقاء أمام ريح شديدة لا تهدأ حتى تبدأ لأنها في يوم عاصف ، ألا ترى هذه الريح كفيلة بتبديد ذرات هذا الغبار شذر مذر ، وأنها لا تبقى عليه ولا تذر ، وكذلك أعمال الكافرين، لا تلبث أن تهب عليها ريح الكفر حتى تبددها ولا تبقى عليها ، وللتعبير عن ذلك جاء قوله سبحانه : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، لا يقدرون مما كسبوا على شيء ، ذلك هو الضلال البعيد » . وحينا ينظر إليها من ناحية أنها تغر أصحابها فيظنونها نافعة لهم ، مجدية عليهم ، حتى إذا جاءوا يوم القيامة لم يجدوا شيئا ، ألا ترى في السراب هذا الأمل المطمع ذا النهاية المؤيسة ولأداء هذا المعنى قال تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا » . وحينا ينظر إليها من ناحية ما يلم بصاحبها من اضطراب وفزع ، عندما يجد آماله في أعماله قد انهارت . ألا تظلم الدنيا أمام عينيه ويتزلزل كيانه ويصبح كهذا الذي اكتنفه الظلام في بحر قد تلاطمت أمواجه ، وأطبقت ظلمة السحاب على ظلمة الأمواج؟ ألا يشعر هذا الرجل بمصيره اليائس، وهلاكه المحتوم ؟ ألا يصور لك ذلك صورة هؤلاء الكفار عندما يجيئون إلى أعمالهم، فلا يجدون لها ثوابا ولا نفعا، ولتصوير ذلك جاء قوله سبحانه : « أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج ، من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

للكلام بقية

أحمد أحمد بدوي

الثالث ، والأول موجب للثاني موجب للثالث إيجابا اقتضاء اطراد سنة الله . أما العلم فهو معرفة عظم ضرر الذنوب فإذا عرف هذا معرفة محققة بيقين غالب على القلب ثار من هذه المعرفة تألم للقلب، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى ، انبعثت من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل) .

ثم يقول في موضع آخر : (أن اللذة تابعة للادراكات . والانسان جامع لجملة من القوى والغرائز ، ولكل قوة وغريزة لذة، ولذتها في نيلها لمقتضى طبعها الذي خلقت له فإن هذه الغرائز ما ركبت في الانسان عبثاً ، بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور وهو مقتضاها بالطبع . فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام ، فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام الذي هو مقتضى طبعها . وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الأبصار والاستماع والشم فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالاضافة إلى مدركاتها) .

نرى في قول الامام الغزالي هذا صورة واضحة الأجزاء دقيقة التركيب متناسبة الأقسام تطابق في وضوح أجزائها ودقة تركيبها وتناسب أقسامها ، الصورة التي رسمها علم النفس للوجدان تمام التطابق . فقد عرف الغزالي هذه العلاقة الدقيقة العجيبة بين المعرفة والوجدان والنزوع ، وعرف أن العلم أو الايمان أو اليقين يثير الوجدان وأن هذا الوجدان قد يكون لذة وقد يكون ألما وأن اللذة تجلب والألم يدفع وأن هذا الجلب وهذا الدفع هما النزوع، وأن هذا النزوع هو الايجابية والسلبية في السلوك وأن بين طيات هذه السلبية وهذه الايجابية السلوك العادي والسلوك الشاذ .

بل في هذين السلوكين الخير والشر والفضيلة والرذيلة والقوة والضعف والشجاعة والجبن ، بل في هذين السلوكين كل تاريخ البشرية من أقصى أزمنة التاريخ إلى أن تبيد الأرض ومن عليها.

هذا هو الوجدان أو الحال عند الغزالي . هو اللذة أو الألم يصحب الادراك أو المعرفة أو العلم أو يصحب النزوع أو الارادة أو العمل، وما دام الحال هو اللذة والألم عند الغزالي كما هو الوجدان عند علماء النفس المعاصرين بالضبط فمن الحق أن نعرف ما عند الغزالي عن الغرائز التي هي منابع الوجدان أو مسارح اللذة والألم لا سيما الغرائز القوية العريقة في القدم التي يحافظ بها الانسان على حياته وينافح بواسطتها دون بقائه .

نقف الآن قليلا لنشير إلى ما كنا ذكرناه في المقالات السابقة من أن نفسية الامام الغزالي كانت سلبية بكل معاني السلبية من معنى وها نحن اولاء نرى هذه السلبية واضحة في معرفته للغرائز البشرية ووصفه لها وتعليقه عليها ، فانه يقسم الغرائز إلى قسمين ، منجية من نار جهنم ومهلكة بهذه النار، فمن الغرائز المنجية من النار الخوف والخضوع والانقياد وما يتبع هذه الغرائز من الرغبات في الفقر والزهد والقناعة .

ومن الغرائز الغضب والتغلب والسيطرة وما ينشأ عنها من الرغبات في الانتقام وحب الجاه والمال والشهرة والمدح .

ونحن ذاكرون هنا طائفة من الغرائز على الترتيب الذي اتخذه لنفسه في ذكرها نرى أن الغزالي قد فهم الغرائز فهما علميا صحيحاً مع المعرفة بأنه أراد — كرب ديني عظيم — أن يستعملها في خدمة عقيدته الدينية القوية ويقينه الاسلامي المستولي على قلبه ولنسمع الآن ما يقوله عن غريزة الخوف التي جعلها من الغرائز المنجية من الهلاك ، يقول :

(إن الخوف عبارة عن تألم القلب واحراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال . فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لاحراق القلب وتألمه ، وذلك الاحراق هو الخوف، ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب إلى البدن بالنحول والاصفرار والغشية والزعقة والبكاء، وقد تنشق به المرارة فيفضي إلى الموت ، أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل ، أو يقوى فيورث القنوط واليأس) . أما فضل الخوف في نظر الغزالي كرب فلأنه قامع للشهوات ، يقول : لا تقمع الشهوات بشيء كما تقمع بنار الخوف ، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات فإن فضله بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات .

ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف . وكيف لا يكون الخوف ذا فضل وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلفى . وأما غريزة الغضب فيصفها الغزالي بهذا الوصف الدقيق البديع البارع يقول : (إن الله تعالى خلق الحيوان معرضاً للفساد في داخل بدنه وأسباب